# الفصل الثالث

# التنظيمات المالية والإدارية للمدارس في القاهرة وحلب في العصر الأيوبي

رغم كثرة المدارس في العصر الأيوبي في مدينتي القاهرة وحلب، فإنه لم يكن هنالك إشارات واضحة في المصادر التاريخية تعطينا معلومات حول فيما إذا كان للدولة الأيوبية سياسة معينة في إنشاء المدارس، ولكن وثائق وحجج الوقف والحبس التي أوقفت أو حبست على هذه المدارس كانت بمثابة القانون الناظم لهذه المؤسسات التعليمية سواء في المدارس أو غيرها من المنشآت الوقفية، وكانت حجة الوقف بمثابة القانون الداخلي للمدرسة فهو ينظم أمور هذه المنشأة من خلال الشروط التي كان يوقف المنشأة على أساسها فكانت الشروط الواجب توافرها في المدرس و المعيد وكذلك طبيعة المذهب الذي يدرس بها، وعدد الطلبة والموظفين الإداريين داخل هذه المدرسة، ولم تكن الدولة تعارض ذلك ما دام يتفق مع السياسة العامة للدولة ويمكن تقسيم المدارس إلى مدارس الحكام و السلاطين، ومدارس الأمراء والأميرات، ومدارس الفقهاء والعلماء، ومدارس التجار، ومدارس العامة. لكن سوف نتحدث عنها على أساس قسمين رئيسين هما المدارس السلطانية، والمدارس غير السلطانية وسوف نتحدث عنهما كلا على حدا:

**أولا : تقسيم المدارس**

**1- المدارس السلطانية :**

هي المدارس التي أنشأها سلاطين البيت الأيوبي وكان أول ما يميزها عن غيرها هو أن أماكن إنشائها كان مختارا بعناية [1] وكان موقعها أما بجوار جامع له من الشهرة والمكانة الواسعة مثل جامع عمرو بن العاص، أو بجوار أحد المشاهد الدينية العامة مثل قبر الإمام الشافعي و المشهد الحسيني، وإما أن تكون جملة من بناء قديم مثل القصور الفاطمية بالقاهرة. أو في أماكن عامة في سوق أو غير ذلك،وهذا يضمن لها البقاء والاستمرار، وتميزت هذه

1- المقريزي ، الخطط ، ج4 ، ص 194 ومابعدها ؛ أحمد فؤاد سيد، نظم الحكم والإدارة في العصر الأيوبي بمصر، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، 1983م، ص281.

المدارس أيضا باتساع وعظمة بنائها هذا راجع إلى الأموال التي كانت تصرف على هذه المدارس [1] .

يصف لنا ابن جبير (ت 614هـ/1217م) المدرسة الناصرية التي بجانب ضريح الإمام الشافعي " وبنى بازائه مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها، ولا أوسع مساحة ولا أحفل بناء، يخيل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته .....والنفقة عليها لا تحصى تولى ذلك بنفسه الشيخ الإمام الزاهد العالم المعروف بنجم الدين الخبوشاني وسلطان هذه الجهات صلاح الدين الأيوبي يسمح له بذلك كله،ويقول زد احتفالا وتأنقا وعلينا القيام بمؤونة ذلك كله"[2] وهذا ما لاحظناه أيضا في المدرسة الظاهرية في حلب فقد كانت أبوابها فخمة ومزينة بالمقرنصات ولها ثلاث قباب وكانت فخمة البناء[3]،وتميزت كذلك بكثرة أوقافها وغناها فمثلا المدرسة القمحية التي أوقف عليها صلاح الدين ضيعة بالفيوم وكذلك المدرسة الكاملية والصالحية اللتان تميزتا بكثرة أوقافهما وغناهما وهذا أيضا ما نلحظه في مدارس حلب مثل مدرسة الفردوس والظاهرية البرانية و الجوانية وغيرها كثير[4]،ولكن هناك سؤال هل هذه المدارس كانت تبنى على نفقة الدولة أي من بيت المال أم من أموال السلاطين الخاصة ؟

من المرجح أن هذه المدارس كانت من أموال بيت المال وذلك من خلال بعض الأحداث و الإشارات فمثلا صلاح الدين بنى مدرستين وهو مازال وزيرا في الدولة

1- أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر ، ص132-133.

2- الرحلة ، ص22-23.

3- عبد القادر الريحاوي، العمارة الإسلامية، ص139.

4- تحدثنا عن هذه المدارس بالفصل الأول ، المدرسة الظاهرية البرانية والجوانية بحلب أنشأها الملك الظاهر ، ومدرسة الفردوس أنشأتها ضيفة خاتون ، والمدرسة الكاملية أنشأها الملك الكامل الأيوبي ، والمدرسة الصالحية أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب .

الفاطمية وكان موقعهما سجنا للمعونة وهي الناصرية الأولى، والأخرى دار الغزل فحولهما صلاح الدين إلى مدرستين، وكذلك المدرسة الكاملية والصالحية[1]،وحتى في حلب كانت بعض المدارس تبنى على نفقة بيت المال ربما راجع ذلك لعدم وجود فصل واضح بين ما يملك السلطان و بيت المال فهو الذي كان يقطع الإقطاعيات لأمرائه وأقاربه وهو الوحيد الذي كان يتصرف في بيت المال.

**2- المدراس غير السلطانية :**

بنيت هذه المدارس من قبل الأمراء والعلماء والتجار والعامة. وجاءت هذه المدارس أقل اتساعا من المدارس السلطانية لأن إمكانيات الأفراد لم تكن مثل إمكانيات السلاطين ، ويمكن استثناء مدارس الأمراء والأميرات من ذلك لأنها كانت تقارب المدارس السلطانية في اتساعها وبنائها لأن السلاطين أغدقوا على أمرائهم في الإقطاعيات والثروة، فأنشئوا المدارس من ثرواتهم الخاصة وأوقفوا عليها الأوقاف مما جعلها لا تقل أهمية وعظمة عن المدارس السلطانية، مثل المدرسة التقوية التي أنشأها تقي الدين عمر وكذلك المدرسة السيفية والشريفية والفخرية[2]،والفائزية التي ذكر ابن العميد[3](ت 672هـ/1273م) عن مؤسسها الأسعد شرف الدين الفائزي[4] أنه كان له أموالا كثيرة عمر مدارس ومساجد وأوقف عليها

---

1- أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر ، ص134.

2- عفاف صبرة، المدارس في العصر الأيوبي، ص157 ؛ أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر ، ص135.

3- أخبار الأيوبيين ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة د. ت، ص44.

4- أحد أمراء الدولة الأيوبية كان في أول أمره نصرانيا من مدينة أسيوط قدم القاهرة و أسلم في أيام الملك الكامل وخدم عند الملك الفائز ابراهيم عبد الملك العادل فنسب إليه وظل من يومها يتنقل بين المناصب الكبرى بالدولة الأيوبية مقدما عند الخاصة والعامة إلى أن قتل سنة 655هـ/1257م.( المقريزي، الخطط، ج2، ص90).

الأوقاف الكثيرة وعمر رباعا وأماكن كبيرة ، وفي حلب قام الأمراء بنفس الشيء مثل المدرسة الشاذبختية والسيفية والحسامية وغيرها. أما بقية المدارس فلم تكن بإمكانيات مدارس السلاطين والأمراء ولكن موقفيها بذلوا الشيء الكثير لذلك ومثال ذلك المدرسة المسرورية ومدرسة ابن رشيق والصيرمية وغيرها في القاهرة والمدرسة الرواحية والبدرية والصاحبية في حلب[1] .

يمكن القول بأن المدارس السلطانية تمتعت بإمكانيات جعلتها أكثر غنى في البناء والأوقاف عنها في المدارس غير السلطانية ، وكذلك في الاتساع فقد كانت المدارس السلطانية أكثر اتساعا من المدارس غير السلطانية ، وربما راجع ذلك إن الدولة وضعت يدها على المباني العامة التي كانت للدول التي قبلها واعتبرتها ملكا للدولة فشيدت عليها المدارس والمساجد بينما كان أصحاب المدارس غير السلطانية لا يملكون العقارات الواسعة ، وإنما قاموا ببناء المدارس حسب طاقاتهم فمنهم من حاكى المدارس السلطانية وقلنا إن هذا ينطبق على الأمراء بينما باقي الطوائف فقد بنوا المدارس في عقارات أقل مساحة وبعضهم أوقفوا بيوتهم وعملوا منها مدرسة أضف ذلك أنهم قلدوا الخاصة.والجدولان التاليان يوضحان عدد مدارس الحكام والأمراء والقضاة والفقهاء والتجار والخدم.

1- سبق التعريف بهذه المدارس بشكل مفصل في الفصل الأول من هذا الكتاب .

**جدول توضيحي لمدارس حلب في العصر الأيوبي رقم (1)**

| اسم المدرسة | مكان وتاريخ الوقف أو الإنشاء | سلطان | أمير أو وزير | قضاة | فقيه أو عالم | تجار | خادم أو عتيق | المذهب |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| الصاحبية | بهاء الدين ابن شداد 601هـ/1204م السفاحية قرب جامع الموازيني | | | = | | | | شافعية |
| الهروية | الظاهر غازي 603هـ/1206م جنوبي محلة الفردوس | = | | | | | | شافعية |
| الظاهرية البرانية | الملك الظاهر غازي 610هـ/1213م خارج باب المقام | = | | | | | | شافعية |
| الرواحية | محمد بن رواحة 622هـ/1225م أول زقاق الزهراوي | | | | | = | | شافعية |
| الشرفية | شرف الدين عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن العجمي 640هـ/1241م شرقي الجامع الأموي الكبير | | | | = | | | شافعية |
| البدرية | بدر الدين عتيق عماد الدين شادي بن صلاح الدين ؟ رأس زقاق الزهراوي | | | | | | = | شافعية |
| الزيدية الالوحية | ابراهيم، عرف بابن زيد الكيال الحلبي 655هـ/1257م داخل باب إنطاكية | | | | = | | | شافعية |
| الفردوس | ضيفة خاتون 633هـ/1235م خارج | = | | | | | | شافعية |

| | | | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| | باب المقام | | | | | | | |
| البلدقية | حسام الدين بلدق عتيق الظاهر 635هـ/1237م الحاضر قرب الكلاسين | | = | | | | | شافعية |
| القيمرية | حسام الدين القيمري 646هـ/1248م ظاهر حلب جوار المقام | | = | | | | | شافعية |
| الأنصارية | مجهولة كتب على بابها 604هـ/1197م الدحديلة | | | | | | | شافعية |
| الشاذبختية الجوانية | شاذ بخت الأتابك الهندي عتيق الملك نور الدين الزنكي 589هـ/1193م حي الجلوم وسط سوق الزرب | | = | | | | | حنفية |
| الأتابكية الجوانية | عبد الله غرل شهاب الدين الأتابك 620هـ/1223م محلة باب الحديد | | = | | | | | = |
| الجردكية | عز الدين جردك النوري 590هـ/1193م سوق البلاط | | = | | | | | = |
| الطمانية | حسام الدين سمان النوري ؟ باب قنسرين بجانب جامع الرومي | | = | | | | | = |
| الحسامية | حسام الدين محمود جد ابن الشحنة 615أو 6625هـ/1218 أو 1227م غربي القلعة | | = | | | | | = |

| | | | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| الأسدية | بدر الدين عتيق أسد الدين شيركوه 623هـ/1234م مقابل القلعة | | | | | | = | = |
| القليجية | محمد بن قليج النوري 650هـ/1252م ملاصقة لدار العدل | | = | | | | | = |
| الفطيسية | مسعود بن عز الدين أيبك (فطيس) 649هـ/1251م غربي دار العدل | | = | | | | | = |
| الشاذبختية البرانية | شاذ بخت الأتابك الهندي عتيق الملك نور الدين الزنكي 589هـ/1193م ظاهر حلب شماليها | | = | | | | | = |
| السيفية | سيف الدين علي بن علم الدين بن جندر 598هـ/1201م خارج باب قنسرين | | = | | | | | = |
| البلدقية | حسام الدين بلدق عتيق الظاهر 635هـ/1237م الحاضر ظاهر حلب | | = | | | | | = |
| النقيب | الشريف النقيب عز الدين المرتضى بن أحمد الاسحاقي ؟ جبل جوشن | | | = | | | | = |
| الدقاقية | علي بن دقاق 622هـ/1225م أو 630هـ/1232م شمال الفيض | | | | | | | = |
| الجمالية | إقبال الظاهري 641هـ/1243م خارج باب المقام | | = | | | | | = |
| العلائية | علي بن أبي الرجاء شاد ديوان الملكة | | = | | | | | = |

| | | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| | ضيفة 633هـ/1235م خارج الكلاسة | | | | | | |
| الكمالية العديمية | مؤرخ حلب كمال الدين ابن العديم 637هـ/1241م شرقي حلب | | | = | | | = |
| الأتابكية البرانية | شهاب الدين غربك الظاهري 620هـ/1223م داخل باب بانقوسا | | = | | | | = |
| مدرسة الجبيل | شمس الدين أبو بكر أحمد بن العجمي 595هـ/1198م داخل باب الحديد | | | | = | | شافعية ومالكية |
| السيفية | سيف الدين علي بن جندر 617هـ/1220م غربي خندق القلعة | | = | | | | شافعية وحنفية |
| السلطانية | الملك الظاهر غازي 613هـ/1216م تحت القلعة | = | | | | | شافعية وحنفية |
| السيفية | سيف الدين علي بن جندر ؟ تحت القلعة | | = | | | | مالكية وحنبلية |
| الكاملية | مجهول، بين 627-634هـ/1229-1236م خارج باب المقام | = | | | | | مجهولة المذهب |
| الكريمية | ؟ لم تذكر سوى عند هرتزفيليد 654هـ/1256م في باب قنسرين أمام الأسدية | | | | | | = |

**جدول توضيحي لمدارس القاهرة في العصر الأيوبي رقم (2)**

| اسم المدرسة | مكان وتاريخ الوقف أو الإنشاء | سلطان | أمير أو وزير | قضاة | فقيه أو عالم | تجار | خادم أو عتيق | المذهب |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| الناصرية الأولى "بابن زين التجار" | السلطان صلاح الدين الأيوبي 566هـ/ بجوار الجامع العتيق مدينة الفسطاط | = | | | | | | شافعية |
| الناصرية الثانية | السلطان صلاح الدين 572هـ/1176م بالقرافة بجوار قبة الإمام الشافعي | = | | | | | | شافعية |
| القطبية | قطب الدين خسرو بن شجاع الهدباني 570هـ/1174-1175م في خط سويقة الصاحب بداخل درب الحريري | | = | | | | | شافعية |
| مدرسة ابن الارسوفي | عفيف الدين عبد الله بن محمد الارسوفي 570هـ/1175م تقع بالبزازين | | | | | = | | شافعية |
| التقوية | تقي الدين عمر أنشأت قبل سنة 571هـ/1175م على شا ئ النيل بمنازل العز الفا مية | | = | | | | | شافعية |
| المشهد الحسيني | السلطان صلاح الدين الأيوبي ؛ بجانب قبر الحسين بن علي | = | | | | | | شافعية |

| | | | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| السيفية | سيف الإسلام ـ غتكين بن أيوب أخو صلاح الدين 593هـ/1197م بين خط البندقانيين وخط الملخيين | | = | | | | | شافعية |
| مدرسة الشريف فخر الدين بن ثعلب | الشريف فخر الدين بن ثعلب الزيني 612هـ/1215م بدرب كركامة على راس حارة الجودرية | | = | | | | | شافعية |
| الكاملية | السلطان الكامل بن العادل الأيوبي 622هـ/1225م تقع بين القصرين الغربي والشرقي الفا ـميين | = | | | | | | شافعية |
| السيوفية | السلطان صلاح الدين الأيوبي 572هـ/1176م من جملة دار الوزير مأمون البطائحي | = | | | | | | حنفية |
| الأزكشية | سيف الدين ايازكوج الاسدي 592هـ/1196م على رأس سويقة أمير الجيوش | | = | | | | | حنفية |
| الغزنوية | حسام الدين قايماز النجمي ؟ سويقة أمير الجيوش | | = | | | | | حنفية |
| العاشورية | الست عاشور بنت ساروخ الاسدي ؟ تقع بحارة زويلة من القاهرة | | = | | | | | = |

| | | | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| الفخرية | فخر الدين أبو الفتح عثمان بن قزل البارومي 622هـ/1225م تقع بين سويقة الصاحب ودرب العداس | | = | | | | | = |
| جهاركس | ؟ القرن السابع الهجري ؟ | | | | | | | = |
| القمحية | السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة 566هـ/1170م موضعها مكان يعرف بدار الغزل | = | | | | | | مالكية |
| الصاحبية | صفي الدين بن يشكر ؟ بمكان دار الوزير الفا ـمي يعقوب بن كلس | | = | | | | | = |
| مدرسة ابن شاس | تقي الدين بن شاس ؟ بالساحل بجوار الربع العادلي الموقوف على مصالح قبة الشافعي | | | = | | | | = |
| مدرسة ابن رشيق | علم الدين بن رشيق بعد سنة 640هـ/1242م وهي بخط حمام الريس | | | = | | | | = |
| مدرسة عز الدين عبد الوهاب الحنبلي | عز الدين عبد الوهاب الحنبلي بعد وفاة صلاح الدين ؟ | | | | = | | | حنبلية |
| الفاضلية | القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني | | | = | | | | شافعية |

| | | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| | سنة 580هـ/1184م تقع بدرب ملوخيا من القاهرة | | | | | | ومالكية |
| الصالحية | السلطان الصالح نجم الدين أيوب 639هـ/1241م تقع بخط بين القصرين وكان موضعها من جملة القصر الكبير | = | | | | | على المذاهب الأربعة |
| مدرسة السديد | علي بن محمد بن سليم بن القاضي السديد ؟ بزقاق القناديل بالقاهرة | | | = | | | مجهولة المذهب |
| الصيرمية | جمال الدين بن صيرم ؟ تقع داخل باب الجملون الصغير بالقرب من رأس سويقة أمير الجيوش | | = | | | | = |

يتضح من خلال الجدولين السابقين أن المدارس غير السلطانية أكثر من المدارس السلطانية في كل من مدينتي القاهرة وحلب ، وهذا راجع لكثرة الأمراء وكثرة إقطاعاتهم وأيضا محاولة كل أمير أن يتقرب إلى السلطان والناس من خلال وقف المؤسسات الخيرية ومنها المدارس ، لكي يكسبوا رضا السلطان ورضا الناس بعد رضا الله ، ولكن على الرغم من قلة عدد المدارس السلطانية فأنها كانت تتميز بضخامتها وتعدد مذاهبها مثل المدرسة الصالحية بالقاهرة .

ونلاحظ أن الفقهاء في كلا المدينتين ساهموا في بناء المدارس، وهذا يعود إلى تشجيع سلاطين الأيوبيين للفقهاء والعلماء وتقريبهم لهم وتوليتهم مناصب عليا في الدولة واقتطاعهم الإقطاعيات السخية مثل القاضي الفاضل[1] بالقاهرة وبهاء الدين ابن شداد[2] في

1- القاضي الفاضل هو عبد الرحيم بن علي البيساني كان أبوه يتقلد قضاء مدينة بيسان ، فلهذا نسبوا إليها . وكانت ولادته بمدينة عسقلان في 15 جمادى الآخرة سنة 529هـ/1134م ، ثم قدم إلى القاهرة وخدم الموفق يوسف بن محمد بن الجلال ، صاحب ديوان الإنشاء في أيام الحافظ لدين الله ، وعنه اخذ صناعة الإنشاء . ثم قدم الإسكندرية مدة ، فلما قام بوزارة مصر العادل رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك 556- 558هـ/1160-1162م ، خرج أمره إلى والي الإسكندرية بتسييره إلى الباب ، فلما حضر استخدم بحضرته وعين في ديوان الجيش . فلما ملك أسد الدين شيركوه 564هـ/1168م احتاج إلى كاتب فأحضره وأعجبه إتقانه ، وسمته ونصحه ، فاستكتبه إلى أن ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فاستخلصه وحسن اعتقاده فيه ، فاستعان به على ما أراد من إزالة الدولة الفاطمية ، حتى تم مراده ، فجعله وزيره ومشيده ، بحيث كان لا يصدر أمرا إلا عن مشورته ولا ينفذ شيئا ، إلا عن رأيه ولا يحكم في قضية إلا بتدبيره.
فلما مات صلاح الدين استمر على ما كان عليه عند ولده الملك العزيز عثمان في المكانة والرفعة وتقلد الأمر ، فلما مات العزيز وقام من بعده ابنه الملك المنصور بالملك ودبر أمره عمه الأفضل ، كان مقيما على حاله إلى أن وصل الملك العادل. مات القاضي الفاضل سنة 596هـ/1199م ، ودفن بقرية بالقرافة. ( المقريزي ، الخطط ، ج4 ، ص197-199 ؛ أسامة عبد المنعم حسن،أهل السنة في العصر الفاطمي "دراسة في تطور الفكر المذهبي السني في مصر" ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، د ت ، ص107 )

2- هو بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم الأسدي ولد بالموصل سنة 539هـ/1144م ، وقد عرف بالموصلي نسبة إلى مسقط رأسه، كما عرف بالحلبي نسبة إلى مدينة حلب التي أقام فيها مدة طويلة حتى توفي . بدأ ابن شداد بتلقيه العلم على يد عدد من علماء عصره أو شيوخه المشهورين،بدء=

حلب. وكذلك إسهام التجار في بناء المدارس وقد وجد في حلب مدرسة واحدة وفي القاهرة مدرسة واحدة ، ولاحظنا وجود مدارس بناها عتيق أو خادم في حلب ولم نلحظ ذلك في القاهرة وربما يعود ذلك إلى محاولة رفع شأن أنفسهم. وكذلك وجود مدارس الفقهاء في كلا المدينتين، ولكن في مدينة حلب أكثر من القاهرة ، وهذا راجع إلى إدراك الفقهاء والعلماء لدورهم في المجتمع وفي الحياة العلمية والجهادية من خلال الإسهام في بناء المنشآت العلمية التي كان لها هدف آخر غير الهدف العلمي وهو شحذ الهمم وإزكاء روح الجهاد لمواجهة الخطر الصليبي.

**ثانيا: الأوقـاف:**

عرفت جميع المجتمعات القديمة ظاهرة الوقف ولكن بصور شتى، ولعل نظام الوقف الإسلامي يرجع في أساس نشأته – بصرف النظر عن التطورات التي لحقت به – إلى الوازع الديني، حيث أرجعه البعض إلى حديث الرسول: (ص) " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا

---

=بحفظ القرآن ومن ثم العلوم الشرعية الأخرى من حديث وتفسير وغيرها . أجاز القرطبي ابن شداد بقراءة القرآن الكريم ورواية الحديث والتفسير، وكذلك أجازه الشيخ مجد الدين أبو الفضل الطوسي ت 578هـ/1182م ، بعد أن اكتسب العلم الوفير من أكبر المشايخ توجه إلى بغداد والتحق بالمدرسة النظامية وهناك درس وقام بمهمة الإعادة التي كان فيها بمثابة المساعد لشيخ مادة الفقه في المدرسة ، ويأتي في تسلسل الرتب بعد المدرس، عاد إلى الموصل سنة 569هـ/1173م،انتقل إلى مرحلة جديدة من حياته هي مرحلة التدريس والاضطلاع بالنشاطات السياسية التي توجت سنة 584هـ/1188م بالتحاقه بخدمة صلاح الدين الأيوبي ومرافقته له في جهاد الصلبيين ، هذه الرفقة التي أثمرت عن كتابه الخالد "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" توفي ابن شداد سنة 632هـ/1234م. (ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج6 ، ص81 ؛ G.Makdisi, The Rise of colleges institutions of learning in islam and the west , Edinburgh Univ,Press , Edinburgh ,1978 ,p .80؛ سفانة الجبوري ، التكوين العلمي للقاضي الجبوري، التكوين العلمي للقاضي بهاء الدين بن شداد، مجلة اتحاد المؤرخين المغاربة ، عدد21 ، الرباط 2002م ، ص184–187)

من ثلاث، صدقة جارية، وعلم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له "[1]، ومن هنا عرف الوقف أنه صدقة جارية، أو ما عرف عن النبي (ص) من قوله لعمر بن الخطاب، عندما أراد التقرب إلى الله بأرض له :" إن شئت حبست أصلها وتصدقت بثمرتها " وهكذا كان الوقف " حبس العين والتصدق بالمنفعة " أي أن أصل الوقف لا يباع ويتم التصدق بريع العين الموقوفة [2] .

يشترط في الواقف أو المنشئ لمؤسسة خيرية أن تتوفر فيه شروط الأهلية منها: أن يكون الواقف بالغا رشيدا، مالكا ملكية صريحة للعقار الذي يرغب في وقفه، وأن يتمتع بحرية اختيار واسعة النطاق في تأسيسه لمنشأته الخيرية، وأيضا أن تكون شروط كتاب الوقف غير مخالف لتعاليم الإسلام بأي حال الأحوال.[3] وأقيمت على الوقف مؤسسات عديدة، منها المؤسسات التعليمية بجميع أنواعها ومؤسسة العلماء والفقهاء، وكانت هذه المؤسسات تعتمد على الوقف كمصدر استقلال مالي دائم وثابت، ولا يتحكم فيه أحد، حيث له شخصية معنوية لا يستطيع أحد أن يوقفه إلا إذا كان الوقف قائما على شرط من بدايته [4] .

نعمت المدارس الأيوبية في القاهرة وحلب بأوقاف سخية وغنية، ولكنها بالمقابل تفاوتت في غناها بين المدارس السلطانية والمدارس غير السلطانية، ولكن بشكل عام كان لكل مدرسة وقف يتناسب مع المدرسين والطلبة الموقوف عليهم، بحيث تكفل لهم راتب أو

---

1- الشوكاني، نيل الأوطار ( شرح منتهى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار) ، ج6، القاهرة 1928م ، ص18.

2- محمد عفيفي، الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1991م، ص15-16.

3- جورج المقدسي، نشأة الكليات " معاهد العلم عند المسلمين وفي الغرب" ، ت محمود سيد محمد، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، جدة 1994م، ص44-45.

4- نصر محمد عارف، نظريات التنمية السياسية المعاصرة " دراسة نقدية مقارنة في ضوء المنظور الحضاري " دار القارئ العربي، القاهرة 1992م ، ص366.

جراية محددة في الشهر سواء كانت أقل أو أكثر المهم كان يوجد مرتب يعين الطلبة ومدرسيهم على مصاريف الحياة. وأول من اهتم بالأوقاف في العصر الأيوبي السلطان صلاح الدين حيث عمد إلى وقف أراضٍ من بيت المال على مختلف المؤسسات الدينية والخيرية، وهي الأوقاف التي كانت بمثابة الأرصاد، و إنما ذكرت أوقاف من باب التجاوز، وسبق صلاح الدين في ذلك الخلفاء الفاطميين ، ولكن يبدو أن صلاح الدين قد أخذ هذا النظام عن نور الدين زنكي وليس عن الفاطميين[1]، وكانت أوقافه سخية على المدارس التي أنشأها في مصر وبلاد الشام، فالمدرسة الناصرية الأولى بمصر والقمحية وغيرهما كلها كان لها أوقاف ثابتة ومحددة ، ورأينا فيما سبق كيف كان وصف الرحالة الأندلسي ابن جبير[2] للمدرسة التي بجانب قبر الإمام الشافعي وكانت الأوقاف تجارية وزراعية مثل سوق الصاغة على الناصرية الأولى وقرية الحنبوشية بالفيوم على المدرسة القمحية بالإضافة إلى قيسارية الوراقين، وقد اقتدى به خلفائه مثل الكامل والصالح نجم الدين أيوب الذين أوقفوا على مدارسهم بسخاء ، وأيضا الأمراء مثل تقي الدين عمر صاحب المدرسة التقوية في منازل العز التي أوقف عليها أوقاف سخية و فعل ذلك العلماء و العامة الذين قاموا ببناء المدارس [3] .

لاحظنا نفس الشيء عند السلاطين الأيوبيين في مدينة حلب.الذين أوقفوا أوقاف سخية تجارية وزراعية وحمامات مثل المدرسة الظاهرية التي بناها الملك الظاهر صاحب حلب 589-613هـ/1193-1216م، التي أوقف عليها سوقا داخل حلب يعرف بسوق الظاهر وبستانا إلى جانبها وضيعة من عمل الباب[4] وكذلك المدرسة الصاحبية التي أنشأها بهاء

---

1- محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ط1، القاهرة 1980م، ص61.

2- الرحلة ، ص22- 23.

3- عفاف صبرة، المدارس في العصر الأيوبي، ص192-194 ؛ أيمن سلام ، المدارس الإسلامية في مصر ، ص136-137.

4- الباب : وهي بلدة صغيرة قريبة من جند قنسرين ، وقريبة من حلب ، ويوجد بها سوق ، وحمام ومسجد جامع ، كما تتميز بوجود جنان كثيرة فيها للنزهة . (أبو الفدا ، تقويم البلدان ، مدينة باريس المحروسة ، بدار الطباعة السلطانية 1840م ، ص337).

الدين المعروف بابن شداد التي أوقف عليها قرية كفر سلوان [1]، وكذلك فعلت ضيفة خاتون في مدرستها"مدرسة الفردوس"التي أوقفت عليها ضيعة كفر زيتا، وثلثي طاحونها[2]

اهتم صلاح الدين بأحوال العلماء والفقهاء من الناحية الاقتصادية، وذلك لضمان استمرارهم في العطاء فمثلا ذكر بهاء الدين بن شداد: أن صلاح الدين قد مر على صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن ، فاستحسن قراءته، فقرَبه، وجعل له حظا من خاص طعامه، ووقف عليه وعلى أبيه جزءا من مزرعة" [3] .

تولى ديوان الأحباس النفقة على المدارس، والمقصود بذلك مجموعة المدارس التي شيدها السلاطين الأيوبيين أنفسهم، وأوقفوا عليها أوقافا ينظر عليها ديوان الأحباس من حيث الإيراد والصرف [4]، وكان هناك إعانات أخرى للمدارس غير الأوقاف مثل الزكاة، والهبات، والإعانات، والصدقات كانت موردا للمدارس ولكنه لم يكن ثابتا، و إنما يرتبط بالأغنياء وكبار رجال الدولة ، وهبات وصدقات المحسنين من الأهالي والتجار وغيرهم، وعطاءات السلاطين والحكام والزكاة الشرعية، وهذه مرتبطة بمدى سخاء السلاطين والأمراء وكذلك وفرة الأموال بيد التجار [5] .

كان للوقف بعض المساوئ حيث كان بعض نظارة الوقف يماطلون المدرسين بدفع رواتبهم وهذا ما دفع أبو شامة[6] (ت 665هـ/1266م) إلى ترك المدرسة والاشتغال بزراعة

---

1- كفر سلوان : من عمل إعزاز التابعة لحلب.( ابن العجمي الحلبي، كنوز الذهب، ج1، ص294)

2- ابن العجمي الحلبي، كنوز الذهب، ج1، ص294-325 ؛ ابن شداد عز الدين، الأعلاق الخطيرة، ج1، ص251 وما بعدها.

3- ابن شداد بهاء الدين ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تح جمال الدين الشيال ، ط1، القاهرة 1964م، ص9.

4- حسنين محمد ربيع، النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، دار النهضة العربية، القاهرة 1990م، ص57.

5- عفاف صبرة، المدارس في العصرالأيوبي ، ص195-197.

6- هو شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة لشامة على حاجبه الأيسر ولد بدمشق سنة 599هـ/ 1202م ، وتوفي سنة 665هـ/1266م ، وهو الفقيه =

أرضه وعندما عوتب على ذلك أنشأ قصيدة كبيرة تبلغ 108 بيتا نقد فيها نظام الوقف وما جره على المدارس من أبعاد أهل الكفاءة من بين مدرسيها[1]، وربما جاءت هذه المساوئ في وقت متأخر أثناء الفوضى والضعف وفي حالات خاصة.ومن أبيات قصيدته نذكر:

أيها العاذل الـذي إن تحـرى قـال خيرا، ونال بالنصح أجرا
لا تلمني على الفلاحة ، واعلم أنها من أحـل كـسب و أثرى
اتخذ حرفة تعيـش بـها يـا طـالب العلم ، إن للعلم ذكـرا
لا تهنه بالاتكـال على الوقف فيمضى الزمـان ذلا وعـسرا
إنما تحصل الوقوف لشريـر و نـــذل مـن العـلوم مـبرا
أو لمن يلزم الأكابر، لا يبرح في خدمـة لهم، ومدح ، وأطرا
طالبا جاههم ، مجيبا إلى كل أمـور لهـم عكـوفا، مصـرا
فترى قاضي القضاة ومـن يذكر درسا ، يرعاه سرا وجهرا
قاصدا قربـه ، فيصغي إليـه فـاعـلا ما يريد، نفعـا وضرا
والضعيف المشغول بالعلم يلقى مـن ولاة الأمور هجرا وهجرا
وهو المستحق لو أبصروا الحق ولـكـن عمـوا فيا رب غـفرا
إنما كانت المـدارس عـــونا لأولي العلم حسب، في الناس طرا
درست في زمـاننا، إذ تولاهـا أولـو الجهـل والحماقة قهـرا
صدقات الوقـوف ينـفر منها كـل حـر يأتيـه صفوا ويسـرا
كيف حـال الـذي يـذل لـها بالقـــول، كـي يـحصل نزرا[2] .

---

= النحـوي المقرئ النحـوي المحـدث ، بلـغ رتبـة الاجتهـاد ، وولـي مشيخة القراءة بالتربـة الأشـرفية ومشيخة دار الحديث الأشرفية . ( ابن قاضي شهبة ، طبقات الشافعية ، تح عبد الحافظ عبد العليم خان ، ط1 ، عالم الكتب ، بيروت 1986م ، ج2 ، ص134 )

1- أحمد بدوي ، الحياة العقلية ، ص81.

2- أبو شامة ، ذيل الروضتين، نشره السيد عزت العطار، ط1، القاهرة 1947م، ص222.

**ثالثا :التنظيمات الإدارية بالمدارس :**

كانت المدارس من الداخل منظمة سواء من حيث الوظائف ومن يديرها والطلبة و أقسامها، وكان ينظم هذه المدارس من الداخل موظفون منهم المدرسون والمعيدون والإمام.....وحتى الخدم،ومعلوماتنا عن هذه التنظيمات جاءت من كتب ومصادر لاحقة على هذا العصر منها السبكي (ت 771هـ/1369م ) في كتابه معيد النعم ومبيد النقم، و القلقشندي ( ت 821هـ/1418م ) في كتابه صبح الأعشى في صناعة الإنشا، وسوف نحاول أن نتعرف على هؤلاء الموظفين من خلالهما وكذلك اعتمادا على بعض الإشارات في المصادر المعاصرة ، وكذلك التشابه في الوظائف والموظفين ودورهم في كل من مدارس حلب والقاهرة في العصر الأيوبي، ومن أهم الوظائف التعليمية والتنظيمات الإدارية داخل تلك المدارس:

**1- المدرس:**

هو الذي يتصدى لتدريس العلوم التي تدرس بالمدرسة من تفسير وحديث وفقه ونحو وتصريف ونحو ذلك. وهو مأخوذ من درست الكتاب دراسة إذا كررته للحفظ [1]، وعلى المدرس أن يحسن إلقاء الدرس، وتفهيمه للحاضرين. ثم إن كانوا مبتدئين فلا يلقى عليهم ما لا يناسبهم من المشكلات، بل يدربهم ويأخذهم بالأهون فالأهون، إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق. وإن كانوا منتهين فلا يلقي عليهم الواضحات، بل يدخل بهم في مشكلات الفقه، ويخوض بهم عبابه الزاخر [2] .

طرأت على وظيفة التدريس ضوابط وقيود لم تكن موجودة من قبل ذلك، فلم يعد القيام بها مباحا لكل من يتصدى لها وإنما أصبح المدرس يعين من قبل السلطان أو الواقف

1- القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص464.
2- السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، تح محمد علي النجار، أبو زيد شلبي، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة 1993م، ص105-106.

الذي بيده تسيير أمور المدرسة. وكان هؤلاء لا يختارون لهذا المنصب إلا من كان له باع ومكانة علمية مرموقة تؤهله للقيام بهذه المهمة العلمية الجليلة[1] .

كانت هناك أسباب رفعت من قدر المدرس، لأن أخذ العلم عن المدرس نال اهتمام المسلمين الذين كانوا يكرهون أخذه عن الكتب وحدها لدرجة أنهم كانوا يقولون: " أن أعظم البلية هو تشيخ الصحيفة أي الذين تعلموا من الصحف" [2] وبلغ من سمو مكانة التدريس أنه كان يصدر تقليد أو مرسوم من السلاطين، واعتبرت هي والقضاء من درجة واحدة، وكثيرا ما جمع الشخص الواحد بين الوظيفتين معا، وممن جمع بين الأمرين زين الدين بن أيوب[3] وتولى الوظيفتين سنة 595هـ/1198م ، في مصر، وكتب له التقليد بذلك الصاحب ضياء الدين بن الأثير الجزري، وكان التقليد يقرأ بطريقة علنية في المسجد الجامع[4] ،وفي مدينة حلب بهاء الدين ابن شداد كان قد جمع بين التدريس والقضاء. وكان يساعد المدرس معيدا أو أكثر وهو الذي يتولى مهمة إعادة الدرس بعد فراغ المدرس منه[5]، وكان مدرس الفقه يتولى أكثر من منصب تدريس في أكثر من مدرسة، فيدرس في واحدة ويستخدم من ينوب عنه في التدريس في الأخريات التي عقدت مشيخة تدريسها باسمه، وكان اللفظ

---

1- محمد أبو غنيمة، تطور التعليم الجامعي في الإسلام، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة 1958م، ص198 ؛ هالة عبد الحميد السيد جاد، نظامية بغداد ودورها الحضاري، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس 1998م، ص99-100.

2- ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، دار الكتب العلمية، بيروت 1935م، ص87.

3- هو علي بن يوسف بن عبد الله بن بندار الدمشقي ولي قضاء مدينة دمشق سنة 591هـ/1194م ، وعزل منه عدة مرات ثم عاد في عهد الملك الأفضل علي بن السلطان صلاح الدين الأيوبي ، لم نعثر على تاريخ وفاته . (السيوطي، حسن المحاضرة ، مج2، ص132-133)

4- السيوطي ، حسن المحاضرة ، مج 2 ، ص127 ؛ عفاف صبرة، المدارس في العصر الأيوبي، ص178.

5- أحمد بدوي، الحياة العقلية، ص76.

الاصطلاحي لمن يقوم بالتدريس نيابة عن مدرس الفقه هو نائب المدرس. وتسمى وظيفة نيابة التدريس وكان بعض المدرسين يستخدم نوابا يحلون مكانه وخاصة في المدارس الواقعة في المدن المختلفة، ويدفع له مبلغ يتم الاتفاق عليه [1] .

اختلفت رواتب المدرسين في القاهرة وحلب كلٌّ حسب وقف المدرسة ونوع المدرسة إن كانت سلطانية كان مرتبه عاليا، وإن كانت غير سلطانية كانت المرتبات غير مستقرة، وفي العهد الأيوبي لم يعد هناك مستوى منتظم لمرتبات المدرسين، بل أصبحت هذه المرتبات تتأثر تأثرا واضحا بظروف متعددة، كمقدار الوقف على المدرسة، ومكانة المدرس وسمعته، ثم تأثرت المرتبات بشكل خاص بالأخلاق التي اضطرب مستواها في هذه الفترة، فإذا كان ولي الأمر كريما أو عفيفا أغدق على المدرسين و إذا كان شحيحا أو شرها قل المرتب الذي يمنحه للمدرسين مهما كان ريع الوقف أو شرط الواقف وأيا كان مركز المدرس العلمي فقد كان الشيخ نجم الدين الخبوشاني يتقاضى أجر مقداره أربعون دينارا في كل شهر عن التدريس وعشر دنانير لأجل النظر في أوقاف المدرسة، وستين رطلا مصريا من الخبز كل يوم، وراويتين من ماء النيل في كل يوم، وكذلك بنى صلاح الدين المدرسة السيوفية وقرر في تدريسها الشيخ مجد الدين محمد بن محمد الجبتي، ورتب له في كل شهر أحد عشر دينارا [2] .

نستطيع القول بأن المدرس كان يتمتع بمكانة مرموقة ويتقاضى راتبا سخيا في معظم المدارس وكانت مهمة التدريس لها مكانتها ويأتي المدرس على رأس الهرم في المدارس بعد ناظر الوقف، وكثيرا ما كان المدرس هو الذي يتولى مهمة ناظر الوقف، وكانت مهمة المدرس محصورة فيمن يدرس الفقه. أما النحو والحديث فكان يتولى تدريسهما شيخ يطلق عليه شيخ الحديث وشيخ النحو وشيخ الطب وشيخ الفرائض [3] .

---

1- جورج المقدسي، نشأة الكليات، ص213.

2- المقريزي ، الخطط، ج4 ، ص251 ؛ أحمد شلبي، التربية الإسلامية، ص248- 248.

3- عفاف صبرة، المدارس في العصر الأيوبي، ص178.

**2- المعيد:**

يلي المدرس رتبة وعليه إذا ألقى المدرس الدرس وانصرف أعاد للطلبة ما ألقاه المدرس إليهم ليفهموه ويحسنوه[1]، وكذلك عليه قدر زائد من سماع الدرس من تفهيم بعض الطلبة ونفعهم وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة[2]، ويكون المعيد عادة أكبر من الطلبة ويقوم بشرح ما صعب على الطلبة فهمه، ومنذ العصر الأيوبي صار منصب المعيد مرموقا. بحيث قل أن خلت مدرسة من مدارس ذلك العصر من معيدين، فقد عين صلاح الدين معيدين بالمدرسة الناصرية، كما عين الصالح نجم الدين أيوب معيدين اثنين لكل واحد من المدرسين الأربع في مدرسته[3]، وفي المدرسة الشرفية أعاد فيها عشرة معيدين، وبسبب اختلاف المستوى العلمي للمدارس فقد كان المعيد مدرسا في مدرسة ومعيدا في أخرى، وهذا يدل على علو مكانة المعيد في المستوى الثقافي، بحيث لا تقل فيها وظيفة المعيد عن وظيفة المدرس في المدارس الأخرى، وأحيانا قد يشتغل الشخص الواحد الوظيفتين معا [4]،وأحيانا كانت هذه الوظيفة تسد العجز الذي كانت تواجهه بعض المدارس من جراء نقص المدرسين وهذا ما أكده المقريزي في روايته عن المدرسة الناصرية الثانية من أنها بقيت ثلاثين عاما ( 648-678هـ/ 1248-1279م) خالية من المدرسين واكتفي فيها بالمعيدين وكانوا عشرة أنفس [5] .

ليس معنى ذلك أن المعيد كان يبقى في تلك الوظيفة طوال حياته بل أننا لاحظنا كثير من المدرسين بدءوا أول ما بدءوا بالإعادة لأحد المدرسين ثم استقلوا بعد ذلك

---

1- القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص464.

2- السبكي ، معيد النعم، ص108.

3- سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر وبلاد الشام، دار النهضة العربية، القاهرة 1998م، ص142.

4- كمال بدور، مملكة حلب ، 215.

5- الخطط ، ج4، ص251.

بالتدريس،ومعنى ذلك أن الإعادة بالمدارس كانت وظيفة محددة من ناحية العدد في أي مدرسة من المدارس بحسب ما تقضي بذلك شروط وقفها، وكذلك أيضا كان التدريس، فلا يصح أن يرقى معيدا مهما طالت مدة إقامته بالمدرسة إلى درجة مدرس بها أو بغيرها من المدارس إلا في حالة خلو ذلك المنصب ممن يشغله مع مراعاة أن يكون موافقا لبقية شروط الواقف.[1] .

**3- الإمام:**

هي من الوظائف التي وجد لها مثال في مدارس العصر الأيوبي وخاصة في مصر ووظيفته كانت إمامة المقيمين بالمدرسة في الصلاة، ويذكر المنذري[2] (ت 656هـ/1258م) عن أبي إسحاق ابراهيم المازني المقرئ الشافعي الضرير المتوفى سنة 639هـ/1241م من: " أنه أم بالمدرسة الفاضلية في القاهرة إلى حين وفاته " وكذلك أبو المهند حسام بن مرهف بن اسماعيل الفزاري الشافعي المتوفى سنة 613هـ/1215م من أنه أم بالمسجد الذي بين القصرين مدة وأم أيضا بالمدرسة الفاضلية بالقاهرة المحروسة مدة.

**4- القارئ:**

هو من موظفي المدارس الأيوبية وهو الذي يقرأ القرآن داخل المدرسة.[3] وأورد السبكي ثلاث من الوظائف التي تتعلق بقراءة القرآن داخل المدرسة: قارئ العشر وهو الذي ينبغي عليه أن يقدم قراءة العشر وذلك قبل الدرس، والقراء الذين كانوا يقرؤون بالألحان وهم الذين عليهم إعمال جهدهم في تأدية كلام الله تعالى كما انزل بلفظ بين، وقارئ الكرسي، وهو الذي يجلس على كرسي يقرأ على العامة شيئا من الحديث والتفسير[4] وكان الصالح أبو الربيع سليمان أبو عبد الله بن يوسف الهواري المتوفى سنة 612هـ/1216م ، قرأ وأم الناس بالمدرسة الصاحبية بالقاهرة ، ولا نعرف أي من الوظائف السابقة كان مختصا بها[5] .

---

1- أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر ، ص149.

2- التكملة لوفيات النقلة، ج3، ص479، ج2، 361 ؛ أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر ، ص150- 151.

3- المرجع نفسه ، ص151.

4- معيد النعم ، ص109- 114.

5- المنذري، التكملة لوفيات النقلة، ج2، ص361، 341، ج3، ص368.

**5- المؤذن:**

عليه معرفة الوقت، وإبلاغ الصوت، ويؤذن للصبح من نصف الليل وعند دخول الوقت . ولذلك يسنَ للصبح مؤذَنان [1] وذكر المنذري[2] (ت 656هـ/1258م) عن أبي الحسن علي اللخمي " من أنه سمع بدمشق وبمصر من غير واحد وحدَث وولي الأذان بالمدرسة الصاحبية بالقاهرة المحروسة إلى حين وفاته سنة 639هـ/1241م.

**6- الناظر:**

هو عادة ما يكون مدير المدرسة وناظر أوقافها وهو الذي يشرف على الوقف، وربما يكون الناظر صاحب الوقف أو المدرس أو مشرف آخر ، وقد لاحظنا في عهد صلاح الدين قد أوكل مهمة التدريس و الإشراف في المدرسة الصلاحية لنجم الدين الخبوشاني، وكان مدرسا ومشرفا على الوقف والمدرسة، وكذلك الشيخ الجبرتي في المدرسة السيوفية.[3] ولاحظنا ذلك أيضا في مدارس حلب مثل المدرسة الصاحبية مع ابن شداد فقد كان مدرسا وصاحب المدرسة والمشرف عليها وكذلك ابن العجمي فعل في مدرسته الشرفية.

**7- الخدم "المستخدمون" :**

يوجد في كل منشأة سواءً كانت مسجدا أو مدرسة طائفة تقوم على خدمة الموظفين وأمور التنظيف والحراسة أحيانا، وقد جرت العادة في مدارس مصر والشام أن يكون لها أبواب لتنظيم الدخول والخروج بها، ودفع من يرتاب فيه ومن يكثر الدخول لغير حاجة، وكان من حقه المبيت بقرب الباب بحيث يسمع من يطرقه عليه وإغلاق الباب ولا يفتح بابها إلا في وقت معلوم [4].

---

1- السبكي، معيد النعم، ص115.

2- التكملة لوفيات النقلة، ج3، ص572.

3- عفاف صبرة، المدارس في العصر الأيوبي، ص182-183.

4- المرجع نفسه، ص184-185.

**8- خازن المكتبة "موظفو المكتبة" :**

يوجد في كل مدرسة مكتبة تحتوي على أمهات الكتب من أجل مطالعتها من قبل الطلاب والمدرسين، وقد عرف لنا السبكي[1] خازن الكتب بقوله: "وحق عليه الاحتفاظ بها، وترميم شعثها، وحبكها عند احتياجها للحبك، والضن بها على من ليس من أهلها، وبذلها للمحتاج إليها، وأن يقدم في العارية الفقراء الذين يصعب عليهم تحصيل الكتاب على الأغنياء، وكثيرا ما يشترط الواقف ألا يخرج الكتاب إلا برهن يحرز قيمته وهو شرط صحيح معتبر فليس للخازن أن يعير إلا برهن" .

كان يشترط في خازن الكتب أن يكون عالما فقيها، وكان يتولى هذه الوظيفة أحد العلماء أو الأدباء ليكون عونا للطلبة والباحثين ويمكنه إرشادهم للمراجع، وكان الناظر يسلم الكتب إلى الخازن ويقوم بمراجعتها ونفض الغبار عنها وترميمها وكان أحيانا يختار من بين الطلبة المترددين على المدرسة، وكان يتسلم الخزانة بحضور الشهود ويعتبر مسؤولا عنها، وقد حددت العطلة التي يحصل عليها مثل الحج أو زيارة الأهل فكان يسمح له بثلاثة أشهر لا غير، ومن غاب عن وظيفته شهرا بغير عذر استبدل بآخر [2] .

وكانت مهمة خازن المكتبة الإشراف العلمي والإداري على المكتبة، فهو يمد المكتبة بالكتب الجديدة، ويلاحظ دقة الفهارس وتنظيمها وشمولها، وييسر للقراء عملهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وكان عادة ما يوجد في المكتبة موظفون آخرون حسب حجم المكتبة، فكان يوجد النساخون والمجلدون وغيرهم كثير [3] .

---

1- معيد النعم ، ص111.

2- زبيدة محمد عطا، مكتبات المدارس "خزانة الكتب" في العصريين الأيوبي والمملوكي، أبحاث ندوة تاريخ المدارس في مصر الإسلامية من 22-25 أبريل عام 1991م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1992م، ص220.

3- أحمد شلبي، التربية الإسلامية، ص161.

بالإضافة إلى هذه الوظائف كان يوجد وظائف أخرى مثل مباشري الإدارة وعملهم ابتياع ما يحتاج من الأصناف، وضبط ما يدخل منه خاصة من غير أن يكون لهم تعلق في استخراج الأموال، ومباشري الصندوق والرباع وإليهم يرجع تحرير الأوقاف في الخلق والسكون والتعطيل واستخراج الأموال ومحاسبة المتأخرين وصرف الأموال بمقتضى حوالة مباشري الإدارة، وأيضا كان يوجد وظيفة مباشرة العمارة الذين كانت وظيفتهم القيام بالإصلاحات المعمارية اللازمة من ابتياع الأصناف واستعمال الصناع وغير ذلك [1] .

**رابعا : طلاب المدارس :**

يعتبر طلاب المدارس هم الأساس الذي تقوم بهم العملية التعليمية ويصبح للمدرسة وجود، وقد حرص بناة المدارس أو الواقفين عليها تحديد عدد الطلبة في كل مدرسة وقد اختلف ذلك حسب المدرسة فإن كانت مدرسة سلطانية فهي أكبر حجما واتساعا وأكثر وقفا، فلذلك يكون عدد الطلاب أكثر، أما المدارس غير السلطانية فهي أقل حجما واتساعا من الأولى فيكون عدد الطلاب بها محدودا، ولم نعثر في أغلب المصادر على عمر محدد لطالب من أجل دخوله المدرسة، ولا سنوات الدراسة التي سوف يقضيها في المدرسة ولكن كان هناك طلاب منتظمون، وطلاب غير منتظمين وطلاب الرحلات العلمية أو الغرباء، وسوف نتحدث عنهم بشيء من التفصيل.

**أ- الطلاب المنتظمون :**

هم الطلبة النظاميون الذين رتبوا على حسب ما تقتضيه حجة وقف كل مدرسة على حدة، ويحتمل أن عددهم كان معروفا ثابتا بشرط الواقف، ولكن لم يكن عدد الطلبة محدد بشكل دقيق، فالمقريزي(ت. 845هـ/ 1442م)[2] يذكر عن المدرسة القمحية: "أنه رتب فيها أربعة من المدرسين عند كل مدرس عدة من الطلبة". وكذلك ما ذكر عن المدرسة السيوفية

1- عفاف صبرة، المدارس في العصر الأيوبي، ص183-184.

2- الخطط، ج4، ص193-194 ؛ أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر ، ص154.

ومدرسها مجد الدين الجبتي الذي جعل له النظر في أوقاف المدرسة فقد سمح له بحرية التصرف بعد راتبه في باقي ريع الوقف حيث قال: "وباقي ريع الوقف يصرفه على ما يراه لطلبة الحنفية المقررين عنده على قدر طبقاتهم"[1] الذي يدقق النظر في ذلك النص يكتشف أن طلبة الحنفية بالمدرسة السيوفية كانوا مقررين أي محددين العدد هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإننا نجد في ذلك النص ما يؤكد على تصنيف السبكي لطلاب المدرسة على قدر طبقاتهم[2] **وهم:**

**فقهاء المدرسة:**

هم من طلاب المرحلة الأولى بالمدارس الإسلامية وعليهم قدر زائد من غيرهم في الالتزام بشروط الوقف من ناحية الانتظام في حضور الدرس والالتزام بقواعد المدرسة الخاصة بسلوك الطالب أثناء الدرس وغيرها من القواعد الأخرى المتعلقة بحياة الطالب داخل المدرسة [3] ويقول السبكي[4] بهذا الصدد: "وعليهم التفهم على قدر إفهامهم، والمواظبة ومن أقبح ما يرتكبونه، تحدث بعضهم مع بعض في أثناء قراءة الجزء من الربعة، فلا هم يقرؤون القرآن، ولا هم يسلمون من اللغو في الكلام، فإن انضم إلى ذلك أن قراءة الجزء شرط الواقف عليهم، وأن حديثهم في الغيبة فقد جمعوا محرمات، ومنهم من لا يصغي للمادح، وربما فتح كتابا ينظر فيه، ولا ينظر لما يقوله المدرس، بل يجلس بعيدا عنه بحيث لا يسمعه. وهذا لا يستحق من المعلوم شيئا، ولا يفيده أن يطالع في كتاب وهو في الدرس فلو اكتفى الواقف منه بذلك لما اشترط عليه الحضور.

**المنتهي من الفقهاء:**

عليه من البحث والمناظرة فوق ما على من دونه. فإن هو سكت وتناول معلوم المنتهي إليه لكونه في نفسه أعلم من الحاضرين فما يكون شكر نعمة الله تعإلى حق شكرها[5]، وهم

1- المقريزي، الخطط، ج4، ص196.
2- أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر ، ص154-155.
3- المرجع نفسه ، ص155.
4- معيد النعم ، ص108-109.
5- السبكي ، معيد النعم، ص108.

طلاب المرحلة الثانية وعليهم قدر زائد على طلبة المرحلة الأولى من ناحية الاستماع للمدرس والمشاركة بعد ذلك في الدرس بالحوار والمناظرة مع المدرس وكان المعلوم الذي يتقاضونه أكبر من طلاب المرحلة الأولى [1] .

**المفيد:**

هو من طلاب المرحلتين السابقتين إلا أنه قد ارتقى عليهم بعلمه وبالطبع فإنه كان أكثر منهما مشاركة في الدرس من ناحية الحوار والمناظرة [2]، ويقول السبكي[3] عنه: "عليه أن يعتمد ما يحصل به في الدرس من فائدة ، من بحث زائد على بحث الجماعة ونحو ذلك من أوضاع لفظ الإفادة وخصوصيتها ، وكان أخذه العوض في مقابلتها حراما". وربما كان المفيد بمثابة طالب دراسات عليا يقوم بإجراء مزيد من الأبحاث أكثر مما يقوم به الطلاب العاديين، وبذلك فهو مرشح لتولي وظيفة المعيد [4] .

**شيخ الرواية:**

وعليه أن يسمع المحدثين، ويستمع لما يقرؤونه لفظة لفظة، بحيث يصح سماعهم، وليصبر عليهم، فإنهم وفد الله تعالى، ومتى وجد جزء حديث أو كتاب تفرد شيخ بروايته كان فرض عين عليه أن يسمعه [5] وشيخ الرواية أرقى رتبة في المدارس الإسلامية يمكن للطالب الوصول إليها إذ كان نشاطه العلمي قد تعدى حدود الدروس التي كان يتعلمها في المدرسة، وقد بدأ السعي بنفسه وراء كلام يتعلق بالعلم الذي يدرس من الكتب والعلماء، سواء كان ذلك داخل المدرسة أو خارجها[6] .

---

1- أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر ، ص155.

2- المرجع نفسه، ص155.

3- معيد النعم ، ص108.

4- جورج المقدسي، نشأة الكليات، ص219.

5- السبكي، معيد النعم، ص111.

6- أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر ، ص155-156.

**ب- الطلاب غير منتظمين:**

وهم الذين كانوا يحضرون مجالس العلماء بالمدارس بصفة غير منتظمة على حسب ما تقتضيه في ذلك ظروفهم، ولذا فإنه لم يكن بالضرورة أن يشملهم شرط الواقف من حقوق أو واجبات [1].

**ج- الطلاب الرحلات العلمية أو الغرباء:**

وهم الطلاب الذين يقومون برحلات من أجل أخذ العلم عن مشاهير بلده، والانتقال من بلد لآخر من أجل مزيد من العلوم. وقد كثر في المدن الأيوبية في مصر القاهرة والإسكندرية وكذلك مدن بلاد الشام دمشق وحلب وغيرها عدد هؤلاء الطلاب وكان في مصر معظمهم من المغاربة والأندلسيين ومن بلاد التكرور كما رأينا فقد بنوا مدرسة ابن رشيق لذلك الغرض، وكان هؤلاء الطلاب الغرباء يقيمون بالمدارس لما تمتاز به من خدمات خاصة بالطلاب ووجود أجلّ العلماء فيها، وهؤلاء الطلاب لم يكن لهم سن معين وكانوا ينتفعون من الخدمات المتوفرة لطلبة المدارس، فأصبحت مصر محطة لطلاب الغرب الإسلامي وخاصة مدينة الإسكندرية [2].

**خامسا: أساليب التعليم:**

تنوعت أساليب وطرق التدريس في المدارس الأيوبية، وكانت تتبع أسلوب متشابه إلى حد ما في كل مدارس ذلك العصر، ولا يوجد مصدر تاريخي مباشر يعطينا فكرة واضحة عن هذه الطرق والأساليب، و إنما من خلال الاعتماد على بعض الكتب المتأخرة، و كذلك بعض الإشارات في المصادر الأيوبية يمكن استخلاص بعض هذه الطرق، وكان هناك عدة طرق للتدريس فمنها: الحلقة، والمجلس، والإملاء والتلقين وغيرها. وكان يرافق هذه الطرق بعض الآداب الخاصة بالطلاب والمعلمين وسوف نتحدث عن كل طريقة على حدة.

---

1- المرجع نفسه، ص157.

2- ابراهيم المزيني، الحياة العلمية، ص217 ؛ أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر ، ص156.

**أ- الحلقة:**

وفيها يجلس الشيخ أو المدرس على حشيَة صغيرة (شلته) أو على منصة، ويغلب أن يكون ظهره إلى حائط أو سارية من سواري المسجد، ويكون الحضور حلقة أمامه ، ويكون هو في أبرز نقطة في محيطها، ويجلس المستمعون في الحلقة بترتيب دقيق، لكل طبقة منها مكان معين فيها [1]،وقد وصف ابن جماعة[2] (ت 733هـ/1332م) ذلك إذ قال: "وقد جرت العادة في مجالس التدريس بجلوس المتميزين قبالة وجه المدرس أو المبجلين من معيد أو زائر عن يمينه أو يساره وينبغي للرفقاء في درس واحد أو دروس أن يجتمعوا في جهة واحدة ليكون نظر الشيخ إليهم جميعا عند الشرح ولا يخص بعضهم في ذلك دون بعض".يستدل من النص السابق أن نظام الجلوس بين يدي المدرسين دقيق بحيث لا يأخذ شخص مكان شخص آخر.وربما جاء اسم الحلقة من التحليق حول المدرس، وكانت هذه الحلقات قليلا ما توجد في المدارس بسبب نظام القاعات وربما كانت هذه الحلقات تعقد في حرم الصلاة في المدرسة أو في القاعة نفسها.

**ب-المجلس:**

نظام المجلس هو من أنظمة التعليم في المرحلة العليا إلى جانب نظام الحلقة، وكانت المجالس تعقد في قصور السلاطين والأمراء والوزراء وبيوت العلماء وفي المدارس والبيمارستانات وخزائن الكتب، لأن بعض العلماء لا يريدونها في المساجد، وكان مثل هذا النظام متبع في المدارس ، وكانت هذه المجالس تنقسم إلى عدة أقسام منها مجالس الوعظ، ومجالس المناظرات، ومجالس التدريس، ومجالس الإملاء . ويهمنا من هذه المجالس مجالس التدريس وهي تختص بالتدريس سواء الفقه أو النحو أو الأدب، وهي تعقد في المدارس وخزائن الكتب وتكون مقصورة على الطلبة المسجلين في المدرسة، وربما كان الأسلوب المتبع في الدرس هو الحوار والنقاش من خلال القراءة وكان الدرس يستمر أحيانا ثلاث ساعات[3] .

---

1- أحمد شلبي، التربية الإسلامية، ص382.

2- تذكرة السامع والمتكلم ، ص149-151.

3- رضوان الليث، الحياة العلمية ، ص153-155.

**سادسا: طرق التدريس:**

اعتمد التدريس في المدارس الأيوبية عادة على الإلقاء والسماع والتلقين والإملاء والقراءة، وربما دارت مناقشات علمية بين المدرس وطلابه خاصة في المرحلة الأخيرة[1]، من هذه الطرق نذكر:

**أ- السماع:**

كان التركيز في التعليم في القرون الأولى على السماع وحده، لعدم توافر متطلبات الكتابة والتدوين في المجتمع الإسلامي آنذاك وكراهية الناس كتابة ما يروونه خوفا من أن يشتبه ذلك مع ما يكتبونه بالقرآن، وصعوبة الحصول على الورق اللازم للكتابة [2] والسماع هو سماع لفظ الشيخ إملاء أو تحدثا، سواء كان من حفظه أو من كتاب، وهو أرفع طرق التدريس، وهي طريقة تلازم طالب العلم في بداية حياته العلمية لأنه لا يمكن أن يصل إلى مستوى عال من العلم دون السماع من كثير من العلماء [3] .

**ب- الإملاء:**

وهي من الطرق المحببة في التدريس ويصفها السمعاني[4] (ت 568هـ/1172م) بقوله: "إذا أملى عليك المحدث وكتبت أنت من لفظه فلا يتطرق إليه نوع من الفساد لأنه يعرف ما يملي وأنت تسمع وتفهم ما تكتب". ازدادت أهمية الإملاء عندما استخدم الورق وأصبح من أعلى مراتب التعليم، ونتيجة لطريقة الإملاء اشتهرت كتب الآمالي، التي هي عبارة عن محاضرات يمليها الشيخ أو المدرس على تلاميذه في مسجد أو في مدرسة، وكان المستملي يكتب أول الصفحة "مجلس إملاء شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا" [5] ويستحب للمملي

---

1- عفاف صبرة، المدارس في العصر الأيوبي ، ص190.

2- أحمد خالد جيده، المدارس ونظام التعليم في بلاد الشام في العصر المملوكي، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة 2001م، ص333.

3- رضوان الليث، الحياة العلمية، ص159.

4- أدب الإملاء والإستملاء ، تح شفيق محمد زيعور، ط1، دار أقرأ، لبنان 1984م، ص69.

5- أحمد خالد جيده، المرجع السابق، ص334.

أن يقعد على موضع مرتفع مثل دكة أو كرسي فإن لم يجد أملى قائما لأن المقصود من الإستملاء أن يبلغ جميع الحاضرين [1] .

**ج- القراءة:**

وهذه الطريقة يوجد لها أسلوبان : الأول يقرأ العالم من كتاب أو من أصل حفظه، وطلبته يستمعون إليه، والعالم في هذه الحالة يجب أن يكون صوته مرتفعا حتى يسمعه كل من حضر مجلسه. والثاني فهو أن يقرأ طالب العلم على العالم كتابه أو مسموعاته، وهو يسمع بحضور طلبة العلم، وهذا يسمى العرض، والعالم أثناء قراءة الطالب يعلق عليه ويشرح ما يمكن شرحه ويحتاج إلى ذلك ، وقد يعترض على بعض ما لم يكن له علم بها [2] .

**د- المناظرة والمناقشة:**

وكانت تقوم على أساس الأسئلة والأجوبة، والمدرس يقوم أحيانا مقام السائل، فيلقي على الطلاب بضعة أسئلة ليختبر فهمهم، وليجيب بنفسه على ما تعسر عليهم أن يجيبوا عنه، وهو بهذا يعطي فرصة للطلاب محدودي المواهب أن ينتفعوا بما تستدعيه هذه الأسئلة وأجوبتها من إعادة للموضوع وزيادة بسط لمسائله [3] وربما يدخل ضمن هذه الطريقة المذاكرة والتسميع، وكانت المناقشة بشكل عام تطرح موضوع معين ويقوم المدرس بأخذ آراء وأجوبة الطلبة ثم يصححها ويعطي الجواب الصحيح، وربما كان يقوم فيها نوع من الجدل لاختلاف الآراء واختلاف أجوبة الطلبة.

**سابعا :آداب الدرس:**

يفتتح الدرس عادة بالبسملة ثم قراءة شيء من كتاب الله تعإلى تبركا وتيمنا وبعد ذلك يدعو لنفسه وللحاضرين وسائر المسلمين ثم يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ويسمي الله تعإلى ويحمده ويصلي على النبي وعلى آله وأصحابه، ويترضى على أئمة المسلمين ومشايخه،

---

1- السمعاني، أدب الإملاء و الإستملاء، ص168.

2- رضوان الليث، الحياة العلمية، ص161-162.

3- أحمد شلبي، التربية الإسلامية، ص386.

ويدعو لنفسه وللحاضرين ولوالديهم أجمعين وللواقف، وكانت الدروس والمواد تقدم حسب الأشرف منها فالأشرف والأهم فالأهم فيقدم تفسير القرآن ثم الحديث ثم أصول الدين ثم أصول الفقه ثم المذهب ثم الخلاف أو النحو أو الجدل، وكان بعض العلماء الزهاد يختتم الدروس بدرس رقائق يفيد به الحاضرين، وإن كان هناك شروط من الواقف في العلوم التي يجب أن تدرس فيها اتبعها ولا يخل بما هو أهم ما بنيت له تلك البنية ووقفت لأجله[1] ،وينبغي إلا يطيل في الدرس تطويلا يمل ولا يقصره تقصيرا يخل، ويراعى في ذلك مصلحة الحاضرين في الفائدة في التطويل ولا يبحث في مقام أو يتكلم على فائدة إلا في موضع ذلك فلا يقدمه عليه ولا يؤخره عنه إلا لمصلحة تقتضي ذلك وترجحه[2]،وكانت هناك بعض الآداب المتعلقة بالطلاب من حيث الاستماع وعدم مقاطعة المدرس والتأدب في الجلوس والكلام وعدم التأخر عن الدرس وعدم مغادرة الدرس قبل انتهاء المحاضرة وغيرها من الآداب المتعلقة بالطلبة والمدرسين.

**ثامنا :علاقة الطلاب بالأساتذة:**

كانت هنالك علاقة قوية بين الطلاب وأساتذتهم ولعل ما اشترط في المدرس من صفات وقدرات توضح لنا أن هؤلاء الأساتذة كانوا نموذجا طيبا للعلاقة الطيبة مع الدارسين فقد كانوا يطلبون منه أن يكون ملما بالعلوم وأن يكون كثير البحث مع طول أناة ليتسنى له دراسة نفسية من يعهد إليه، ويستطيع بالتالي النزول إلى مستواه ويعمل على الاتصال العاطفي معه[3]،وهناك أدلة واضحة على المعاملة التي كان يعامل بها المدرسون الطلبة فها هو العالم الخبوشاني الذي عينه صلاح الدين على المدرسة الصلاحية كان يعامل الطلبة معاملة الأب لأبنائه ويحاول تقصي أخبارهم والسؤال عن مشاكلهم ومحاولة حلها

---

1- ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم، ص34-35.

2- المصدر نفسه، ص35-36.

3- عفاف صبرة ، المدارس في العصر الأيوبي، ص187 ؛ أسعد طلس، التربية والتعليم في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت د.ت ، ص129.

حتى يتفرغوا لطلب العلم، وقد خرج في بعض الليالي يطوف على بيوت الطلبة بالمدرسة فسمعهم يقرؤون القرآن حتى أتى على خلوة فنظر من خلال الباب فرأى صاحب الخلوة وقد وضع الكتاب من يده وأنشد بعض أبيات الشعر التي تنم عن حالته، فلما اصبح النهار سأل الشيخ الخبوشاني الطالب عما به وأخبره بما سمعه منه في الليلة السابقة، وحل مشكلته[1]،وفي ذلك دلالة واضحة على انه لم يكن يهتم بإلقاء الدروس فقط و إنما تعده ليصبح المربي والمعلم والناصح لطلبة ، وكان المدرسون في المدارس نموذجا يحتذى بهم علما وعملا فلم يكن تأثيرهم وعلاقتهم بالطلبة تتوقف عن الأثر العلمي ، وإنما كانت أخلاق هؤلاء المدرسين نبراسا وهدى سار عليها الطلبة في حياتهم فخرجت هذه المدارس نماذج طيبة من العلماء الذين لعبوا دورا كبيرا في الحياة السياسية والدينية وحتى الحربية وخاصة أثناء الحروب الصليبية وما بعدها[2] .

**تاسعا : الإجازة :**

وتعني أن طالب العلم يستجيز العالم علمه فيجيزه، وتستحسن الإجازة إذا علم المجيز ما يجيز وكان المجاز له من أهل العلم، والإجازة ليست خاصة بالمحدثين، و إنما اشتملت على بقية العلوم، وكانت هذه الإجازات بمثابة الشهادات التي تمنح اليوم للطلاب، فلا يستطيع أي طالب علم أن يروي أي علم من العلوم إلا بإجازة من العلماء الذين أخذ منهم، وتكون مثل إعطاء العالم كتبه أو بعضها لطالب العلم، ويعطيه إذنا بروايتها ، أو إجازة العالم لطالب العلم أو غيره من العلماء برواية جميع قراءاته و مسموعاته[3] .

تكون الإجازة بوصول الطالب إلى مرحلة يقتنع أستاذه عندها أنه أصبح أهلا لأن يجلس مجلس الأستاذ ، فيمنح بذلك الإجازة، ولا يصل الطالب إلى مرتبة الفقيه إلا إذا أمكنه

---

1- ابن الزيات ، الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة في القرافتين الصغرى والكبرى ، القاهرة 1907م ، ص214-215.

2- عفاف صبرة، المدارس في العصر الأيوبي، ص188.

3- رضوان الليث ، الحياة العلمية ، ص162-164.

أن يعترض على أستاذه ويصير إلى حالة يمكنه فيها أن يقول له: لم؟ ويحسن الاعتراض عليه، وقد تنوعت هذه الإجازات: فمنها ما يمنح للطالب يجيزه بتدريس المواد التي أجاد دراستها، وينص في الإجازة على هذه المواد، وأعتاد الأستاذ أن يثني على تلميذه في إجازته، فهذا مجد الدين علي القشيري يجيز محمد بن علي القوصي بالتدريس، ويكتب في إجازاته: الفقيه العالم عماد الدين محمد، بدأ القرآن العظيم، فأحكم القراءات السبع، ثم ثنى بالاشتغال بمذهب الإمام الشافعي درسا وتكرارا، فختم على المهذب أو أكثره، ثم اشتغل بعلم التفسير، تفسير القرآن العظيم وفيها شهادة الشيخين الفقيهين العالمين: بهاء الدين هبة الله القفطي، وجلال الدين أحمد الدشناوي، شهدا على شيخهما، وأثنى كل منهما على المجاز المذكور، وأرخ الشيخ بهاء الدين في رسم شهادته بالنصف من شعبان سنة 650هـ[1].

وقد يجيز الأستاذ تلميذه بالتدريس والفتوى معا. كما أجاز ابن دقيق العيد تلميذه عمر بن المفضل وكان ابن دقيق العيد يتأنق في إجازاته قال بعد سؤال شمس الدين له بالإجازة: أستخير الله تعالى في الإيراد و الإصدار، واعتصم به من آفتي التقصير والإكثار ، واستغفر الله فيما فرط في الجهر والإسرار، وأقول: أني ذاكرت فلانا زينه الله بالتقوى، وحرسه في السر والنجوى، في فنون من العلوم الشرعية: العقلية والنقلية، فألفيته يرجع إلى معقول صحيح، ومنقول صريح، واطلاع على المشكلات ، واضطلاع بحل المعضلات، لا سيما في فقه المذهب، فأنه أصبح فيه كالعلم المذهب، وقام بعلم العربية والتفسير، فصار فيها الفاضل النحرير، وقد أجبته إلى ما التمس، وان كان غنيا بما حصل واقتبس، فليدرس مذهب الشافعي لطالبيه، وليجب المستفتي بقلمه وفيه، ثقة بفضله الباهر، وورعه الوافر، وفطرته الوقادة، وألمعيته النقادة، والله تعالى ينفعنا وإياه بما علمناه، ويرفعنا بذلك لديه فما القصد سواه[2].

وقد تكون الإجازة بالفتوى فحسب، أو برواية الحديث، كما أجاز السلفي لعلي بن يوسف القفطي الوزير أن يروي عنه، وقد يجيز الأستاذ لطالبه أن يروي مصنفاته، أو يروي

1- أحمد بدوي، الحياة العقلية، ص88-89.

2- السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج4، ص258 ؛ أحمد بدوي، الحياة العقلية، ص89-90.

مسموعاته، أو أن يدرس كتابا بعينه، قد درسه عليه، وهناك شهادات للعلماء بقراءة الطلبة عليهم مادة بعينها[1]،وما كانت هذه الشهادة تصل إلى درجة الإجازة، والغالب فيما يمنح من الإجازات أن يكون قصيرا أو قد تطول الإجازة حتى تصبح قريبة من كراستين، كهذه الإجازة التي منحت لابن شداد، وفيها يذكر كل شيء بالتفصيل [2] .

**عاشرا :المنشآت الرئيسة بالمدرسة :**

**أ- قاعات الدرس :**

وجدت هذه القاعات في كل المدارس الإسلامية، وكانت هذه القاعات مناسبة لعدد الطلبة المنتسبين لكل مدرسة وقد رأينا في المدرسة القمحية التي بناها صلاح الدين أن جعل لها أربع قاعات للدرس بحيث يكون لكل قاعة مدرس وذلك على الرغم من أن المدرسة القمحية كانت قد أوقفت على مذهب واحد هو المذهب المالكي. وكان الإيوان هو الذي يراد به قاعات الدرس وهو لغة البيت المرتفع البناء غير مسدود الوجه، أي أن قاعة مسقوفة بقبوه مفتوح مقدمها على بهو يعقد، وربما وجد في المدارس أيضا قاعات مغلقة. وكان يوجد بالمارستان أيضا قاعة محاضرات [3] .

**ب- مساكن الطلبة :**

أدى ازدهار العلم وازدياد أعداد الطلاب إلى إقامة مراكز خاصة بالتعليم كان الهدف منها أن تستوعب هذا الكم الكبير من الدارسين والطلاب، وكانت هذه المساكن تختص بالمدرسين والطلبة أيضا بالإضافة إلى خدم المدرسة، وكان المدرسون يسكنون في المدارس من ذلك ما ذكره المنذري (ت 656هـ/1258م) عن أبي عبد الله محمد بن عبد الوهاب الذي كان يسكن بالمدرسة السيوفية " وكانت وفاته بمنزله الذي بالمدرسة السيوفية التي بالقاهرة " وكذلك العز بن عبد السلام الذي توفي بمنزله بالمدرسة الصالحية، وهذه الدور لعبت دورا

1- المرجع نفسه، ص90.

2- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، 354.

3- عفاف صبرة، المدارس في العصر الأيوبي ، ص165 ؛ أحمد فكري، مساجد القاهرة، ص86-87 ؛أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر ، ص157.

بارزا في استقرار أحوال المدرسين فقد كان المدرس قريبا من مكان درسه ويخفف ذلك عنه كثيرا من العناء، وكانت هذه المساكن من مفاخر المدارس وكانت هذه المساكن تضم الطلبة أيضا وهذا ما دفع كثير من الطلاب من القرى والبلاد البعيدة إلى الالتحاق بالمدارس لتوافر كل متطلبات التعليم من علم وعلماء ومدارس ذات شهرة واسعة وتوافر المسكن وكذلك وجد المرتب نتيجة الوقف السخي على هذه المدارس

عني السلاطين الأيوبيون ومن قبلهم الزنكيين والفاطميين بإنشاء دور لسكن الطلاب والمدرسين ومن ضمن ذلك ما ذكره ابن العجمي (ت 884هـ/1479م) " من أن نور الدين عندما ملك مدينة حلب سنة 541هـ/1146م ،حول مسجد السراجين إلى مدرسة حدد فيها مساكن يأوي إليها الفقهاء وديوانا" أما عن كيفية بناء هذه البيوت فقد كانت غرفا صغيرة بعضها من طابق واحد ومعظمها من طابقين وعددها يتفاوت من مدرسة لأخرى ولكنه يتناسب مع حجمها ومع سعة بهوها وبيت صلاتها [1] .

**ج- مكتبات المدارس:**

تمثل المكتبة أو "خزانة الكتب" جزءا هاما من الأداة التعليمية في العصر الأيوبي التي تمثلت في المدارس، فلقد حوت أغلب مدارس ذلك العصر خزائن للكتب لتكون عونا للطالب على استيعاب دراسته وخاصة أن الكتب آنذاك كانت تكلف مبالغ باهظة [2] ،ووجدت المكتبات قبل المدارس منذ عهدي الحمدانيين[3] في حلب والطولونيين في مصر،

---

1- عفاف صبرة، المدارس في العصر الأيوبي، ص167 ؛ أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر ، ص158 ؛ ابن العجمي الحلبي، كنوز الذهب ، ج1، ص340 ؛ أحمد فكري ، مساجد القاهرة ، ص121 ؛ محمد أبو غنيمة، تطور التعليم، ص187.

2- ابن الزيات ، الكواكب السيارة ، ص214-215؛ زبيدة محمد عطا، مكتبات المدارس، ص203.

3- وجدت في حلب مكتبتان خاصتان على جاب كبير من الضخامة هما مكتبة سيف الدولة الحمداني(303-356هـ/915-966م) التي جعلها في عهدة الشاعرين أبو فراس الحمداني والمتنبي ، ومكتبة جمال الدين القفطي ت 646هـ/1248م التي جمع فيها من الكتب ما لا يوصف ، وقصد بها من الآفاق وكان لا يحب من الدنيا سواها ، وكانت تساوي خمسين ألف دينار. (الكتبي ، فوات الوفيات ، ج2 ، ص193 ؛ عبد الستار الحلوجي، لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة 1991م ، ص46)

امتازت هذه المكتبات بأنها دسمة وغنية بالكتب وخاصة وأن المكتبة الفاطمية الضخمة[1] قد بيعت كتبها في المزاد واشترى كثير من العلماء هذه الكتب ما عدا التي حرقت وكان القاضي الفاضل قد حصل على عدد كبير من هذه الكتب وأوقفها على مكتبة مدرسته التي أنشأها وهي المدرسة الفاضلية، وقد حوت كتب من شتى أنواع المعرفة البشرية بالإضافة إلى مكتبته الخاصة التي كان يحتفظ بها في بيته التي آلت إلى ابنه الأشرف من بعده. وكذلك مكتبة المدرسة الكاملية التي أنشأها الملك الكامل سنة 622هـ/1225م ، ومكتبة المدرسة الصالحية التي أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة 639هـ/1241م ، ومكتبة المدرسة الظاهرية التي أسسها الملك الظاهر 589-613هـ/1193-1216م في حلب ، ومكتبة المدرسة الشرفية بحلب أيضا ، وجدت في العصر الأيوبي مكتبات في المساجد و المارستانات و الخانقاوات[2] وكان للمكتبة في المدرسة مكان مخصص ولها موظفين خاصين بها. وقلما خلت مدرسة من مدارس بني أيوب التي انتشرت في أرجاء دولتهم من مكتبة مزودة بمجموعة صغيرة أو كبيرة من الكتب تبعا لمكانة المدرسة ومقدار وقفها واهتمام أولي الأمر بها من جهة ، وتبعا لما يوقفه واقفها من كتب خاصة به سيما وإن كان الواقف من العلماء والفضلاء مثل القاضي الفاضل وغيره[3] .

---

1- تعتبر هذه المكتبة من أضخم المكتبات التي أنشئت بمصر، أنشئها الفاطميون وجمعوا فيها كتب من كافة أصناف العلم، ونقلوا إليها أعدادا غفيرة من الكتب الموجودة في خزائن القصور الفاطمية من سائر العلوم . وقسمت المكتبة إلى أقسام : قسم للفقهاء ، وقسم لقراء القرآن الكريم، وقسم لأصحاب النحو واللغة ، وقسم آخر للأطباء ، وقد أباح الحاكم بأمر الله المكتبة لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها ، فمنهم من كان يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعلم وكل لديه حاجته من الحبر والمحابر والورق والأقلام. صادر صلاح الدين الأيوبي كتب هذه المكتبة فبعضها بعيت وبعضها حرقت . (سيد حسب الله و محمد جلال غندور، تاريخ الكتب والمكتبات عبر الحضارات الإنسانية ، دار المريخ للنشر، الرياض 1996م ، ص145-146)

2- ابن دقماق ، الأنتصار لواسطة عقد الأمصار، ج4، ص93 ؛ السيد النشار، تاريخ المكتبات في مصر "العصر المملوكي" ، ط1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 1993م، ص70-72 ؛ شعبان خليفة ، الكتب والمكتبات في العصور الوسطى "الشرق المسلم ، الشرق الأقصى" ،الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة 1997م ، ص326.

3- حسن شميساني، مدارس دمشق في العصر الأيوبي، ط1، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1983م، ص47-48.

**د- بيت الصلاة:**

كان للمدرسة الإسلامية وظيفتان متلازمتان هما الدراسة والصلاة بحيث لا تخلو مدرسة إسلامية من بيت للصلاة ، وقد كان جدار القبلة هو العامل الرئيس في تخطيط المدارس جميعها و حدودها الداخلية تنتظم في مستطيل أو مربع وبذلك فإنه يوجد في هذه المدارس بيت للصلاة وأن هذا البيت يتصدر بناؤها وأنه أكثر قاعاتها أهمية واتساعا [1] .

**هـ- الحمامات:**

ألحق مؤسسي المدارس في العصر الأيوبي حمامات بمدارسهم من أجل أن يستحم بها المقيمون في المدرسة كمدرسة منازل العز والمدرسة الناصرية الثانية وكذلك المدارس التي شهدها ابن جبير في الإسكندرية إذ قال: " واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتخصيص حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك" [2] والأمر نفسه ينطبق على مدارس حلب.

**و- المارستان:**

كما اهتم مؤسسو المدارس الأيوبية بالطلبة والمدرسين من الناحية الصحية فأنشأوا المارستانات و ألحقوها بالمدارس ، وقد ذكر ابن جبير عن المارستانات التي ألحقت بالمدارس " ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم" [3] .

أخيرا يمكن القول إن المدارس في مدينتي حلب والقاهرة كانت متشابهة في المنشآت الرئيسة أي وجود بيت للصلاة في كل مدرسة ومساكن للطلبة وقاعات تدريس وغيرها من المنشآت الأخرى، بالإضافة إلى التشابه في التنظيمات الإدارية داخل المدرسة مثل المدرسين والمعيدين وكذلك الموظفين الآخرين وهذا يعود إلى أن هذه المدارس كانت في عصر واحد

---

1- محمد أبو غنيمة، تطور التعليم، ص62 ؛ هالة عبد الحميد السيد جاد، نظامية بغداد، ص76.

2- الرحلة ، ص15.

3- الرحلة ، ص15.

وحكام من أسرة واحدة هي الأسرة الأيوبية وكذلك كثرة الأوقاف على المدارس في كلا المدينتين . الأمر الذي يجعل من الصعب رصد الاختلاف في التنظيمات الإدارية والمنشآت الداخلية المكونة للمدرسة في حلب والقاهرة وهذا ما أشرنا إليه في البداية . المهم أن هذه المدارس كانت تخضع لنظام دقيق ومنظم وكل ذلك كان يحدد في شروط الواقف أو المنشأ، من حيث عدد الطلاب والمدرسين والمعيدين فيها. وكل ذلك أعطى للمدارس الأيوبية قيمة علمية كبيرة وأصبحت الحواضر الأيوبية قبلة العلم والعلماء من كل أنحاء العالم الإسلامي.